

ملاح من الحياة الاجتماعية في العصر الوسيط

دراسة في شعر الصناع وأصحاب الحرف

د. محمد شاكر ناصر الربيعي

جامعة بابل / رئاسة الجامعة

المقدمة

الحمد لله فوق حمد حامدين ، والصلاة على رسوله الصادق الأمين ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وأصحابه المنتجبين . وبعد :

فأن الشعر وجةٌ من وجوه حياة الأمم ، يصور حياتهم ويؤرخ ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم ، ومن المراحل المهمة في تاريخ أدبنا العربي مرحلة (العصر الوسيط) تلك المرحلة المظلومة مرتين ، المرحلة الأولى ظلمت عندما ساد الاحتلال البيغيز إرجاءها المعمورة وأصابها من اجله ما أصابها من تدهور واضطراب في الحياة الاجتماعية ، وظلمت مرةً أخرى عندما جاء الدارسون فوصفوا نتائجها العلمي والأدبي بأوصاف عدة منها (الانحطاط ، والانحلال ، والمظلم ، والانحدار ، . . .) ، لكننا نجد أقلاماً خيرةً أنصفت هذه المرحلة بعد أن وقع عليها الجور الفكري، ويأتي هذا البحث ليعكس صورة من صور الشعر وألوانه في هذه المرحلة، حيث يقف عند الحياة الاجتماعية لهذا العصر من خلال ما انشده الشعراء أصحاب الحرف، والشعر الاجتماعي ليس وليداً لهذه المدة وإنما هو امتدادٌ للإرث الأدبي في العصر العباسي، فقد ((استجاب الشعر الاجتماعي لمجريات الحياة في العصر العباسي، ومما أزر ذلك النقلة الاجتماعية السريعة من حياة البادية إلى الحياة المتحضرة))⁽¹⁾، وهكذا نجد الشعر الاجتماعي في العصر الوسيط وهو ليس تقليداً أعمى لما جاء في العصر الذي انسلخ قبله ((لان تصوير الالام أحاسيس متجددة ومتفاعلة ، وهو نوع من الشعور الصادق ييبث فيه الشاعر لواعجه، ويصور مجتمعه رغبة منه في التحسين))⁽²⁾، وإن خير من يصور هذه الحياة هو شعر الشعراء أصحاب المهن والحرف، والسبب في ذلك هو ولوجهم معترك الحياة وقدرتهم على إنشاء الشعر فصوروا ذلك المجتمع خير تصوير، وهو الأمر الذي سنقف عنده في هذه الدراسة، حيث تناولت في المبحث الأول موضوع الشعر والحرفة باعتبار الحرفة موضوعاً شعرياً والمبحث الثاني يعرج على وصف الحياة الاجتماعية عن طريق تصوير تلك الملاح التي نقلها إلينا شعر أصحاب الحرف والمبحث الثالث تناول موضوع العلاقات الاجتماعية بين الشعراء أصحاب المهن. إن الغاية من هذا البحث هي الدفاع عن الحركة الأدبية والثقافية والعلمية للعصر الوسيط، والبحث ردّ الذين وسماوا هذه المرحلة بالنعوت التي ذكرت أنفاً، لذا يأمل الباحث أن يكون موفقاً قدر المستطاع، فإذا كان البحث قد استوفى غايته فالفضل لله وحده وإن كان به قصور فهو من صنع الباحث وحسبه ان موضوع العصر الوسيط لازال بكرّاً ، وأن تراث هذه المرحلة بحاجة ماسة إلى الوقف عنده ، سائلاً المولى جلّ علا أن ييسر سبيل الباحثين ، انه نعم المولى ونعم النصير .

الشعر والحرفة في العصر الوسيط

لقد أصبح قول الشعر وإنشاده في العصر الوسيط مكملاً لشخصية الفرد، ونجد الشعراء هذه المرحلة موجودين في السوق وفي المجالس الرسمية وفي المحافل الأدبية والعلمية ولم تتلخ مهنة الشعراء عن قولهم الشعر ، ونجدها طاغيةً في كثيرٍ من المناسبات التي يقال فيها الشعر، وقد شاع ذكر أسماء لامعة من الشعراء

ممن لتحق اسمهم بمهنتهم، ومنهم على سبيل المثال ((أبو الحسين الجزار، ابن دانيال الكحال، السراج الوراق، الحمّامي، المعمار الدهان المازني))، فضلاً عن شعراء آخرين لديهم حرف معينه بيد إنهم عرفوا بأسمائهم والقابهم ، ولم ينسبوا إلى حرفهم، والشائع في هذه المرحلة ذكر الحرفة في الشعر ، وهذا الأمر نجده كثيراً جداً في شعر أبي الحسن الجزار⁽³⁾، فكثيراً ما كان يفتخر بقومه وبعراقة أصلهم، وهو لا يأنف من ذكر حرفته بل يفتخر بها على غيره ، إذ يقول في هذا المعنى :

ألا قل للذي يسد	أل عتن قومي وعن أهلي
لقد تسأل عن قوم	كرام الفرع والأصل
ومازلوا لما يبدو	ن من بأسٍ ومن بذل
يرجّهم بنو كلبٍ	ويخشاهم بنو عجلٍ ⁽⁴⁾

لقد أجاد الشاعر في بيته الأخير عندما لمّح في ذكر مهنته وربط هذا التلميح بأنسب العرب الذين جعل منهم راغبين في رجاء قومه ، فالشاعر يفخر بمهنته وبقومه ، وقد يصل الحال بالجزار بأن يعارض فخر المتنبي بنفسه، فيذكر فخره بمهنته وما يلزمها من أدوات الصنعة، كالسكين والساطور، ويرد على شاتميه رداً تملؤه الثقة بالنفس والاعتزاز بالمهنة والاعتزاز لحرفته التي اعتر بها حتى انه تحدى شاتميه أن يجلبوا عيباً واحداً خلا امتهانه مهنة الجزارة، فيقول راداً عليهم ومفتخراً بمهنته إذ يقول : -

إن شئت نعرف في الآداب منزلتي	وأني قد عداني العزّ والنعم
فالظرف والسيف والواجاق تشهد لي	و العود والنرد والشطرنج والقلم ⁽⁵⁾

ويبدو أن أبا الحسين الجزار قد ترك مهنة الجزارة لمدة من الزمن ثم عاد إليها بعد أن شح ماله ، أو كما يقول الدكتور محمد زغلول سلام: (إن نفسه ملّت الاستجداء بالشعر فعانى ألماً، ومرّ بأزمةٍ عارمة عدلت به التكسب بالشعر)⁽⁶⁾ فقال مخاطباً احد أصحابه بعد أن عاتبه لعودته إلى مهنة الجزارة : -

لا تلمني يا سيدي شرف الدي	ن إذا ما رأيتني قصابا
كيف لا اشكر الجزارة ماعش	ثُ حفاظاً وأرفظ الادابا
وبها أضحت الكلاب ترجّ	ني وبالشعر كنت أرجو الكلابا ⁽⁷⁾

ومثلما افتخر الجزار بمهنته فإن نصير الدين الحمّامي⁽⁸⁾ هو الآخر افتخر بمهنته، وذكر بأن له فضلاً في إنشائه منزلاً تكرم الجار الجنب ويتنظف بها الناس، وينزل فيها الغيث كالسحاب، وهو بهذا يعتد بهذه الحرفة ويصرح بها ، فيصف حمامه قائلاً :

لي منزلٌ معروفة	ينهلُ غيثاً كالسحب
أقبلُ ذا الغدر بها	وأكرم الجار الجنب ⁽⁹⁾

ويبدو الحمّامي أكثر صراحةً عندما ذكر بأنه يسعى لخدمة الناس في الحمام الذي لزمه، حيث يداري به الناس ويصبر على العناية بهم ، وقد كتب في هذا المعنى إلى أبي الحسين الجزار مستعيناً بأحد الأمثال الشائعة، ذلك في قوله :

خلاً يداري من لا يداريه

وفد لزمث الحمام صرث به

وأخذ الماء من مجاريه (10)

أعرف حز الأسي و بارده

كذلك يشير الشاعر السراج (11) الوراق إلى مهنته ويدعو احد ممدوحيه إن يذكره مع جليسه إذا تحدث عن الصنایع ، فانه قد اشتهر لا بحسن خطه وذاع صيته فيقول :

تن منها أزهر الأفنان

وتطار حتما مذاكرة يف

فأجعلاني في بعض من تنكران (12)

فإذا مرّ للضائع ذكر

إما ابن دانيال الكحال (13) فإنه يصف مهنته وصفاً فكاهياً وهو يتحدث إلى سائلة عن المهنة التي يزاولها فيشير إلى أن أمواله تؤخذ من أعين الناس وهو محق في هذا التصوير كونه يعمل كحالا، إذ يقول :

وثرتي فيهم وإفلاسي

يا سائلي عن حرفتي في الوري

يأخذه من أعين الناس (14)

ماحال من درهم انفاقه

وقد يذكر الشعراء منهم في الشعر أثناء ردهم على من يعيرونهم بمزاولة الصنعة، وينتصرون للمهنة التي يزاولونها ويبررون سبب تمسكهم بهذه الصنعة أو تلك. وهذا ما فعله الشاعر ابن المحدث (15) وكان يمتن تعليم الصغار بأحد الكتاتيب في دمشق، حيث ردّ على لائميّه ذاكراً إن تعليمه الصغار يجنبه ذل السؤال ويحفظ له ماء وجهه، على العكس تماماً عندما يقف الشعراء وهم يسألون الأغنياء كي يتفضلوا عليهم بما يجودون من مالٍ يقابل مدحهم وإطراءهم ، أما الحفاظ على كرامة المرء فلا يأتي الا بكسبه من عرق الجبين ، إذ يقول ابن المحدث : -

بي إذ كنت للعلی مستقا

لائمي في صناعتي مسخفا

بعد بّري ولم يضع لي حقا

ما غزالٌ يقبل الكفّ مني

صفرّت من ندى لاسأل رزقا

مثل تيسٍ ابوسُ منه يداً

سلامي ويزدريني حقا

فيولي عني ويلوي عند رد

د إله السماء خيرٌ وأبقى (16)

فأفتعدو اقتصر عليها فما عند

ومتلما فعل ابن المحدث في رده على لائميّه فقد ردّ أبو الحسين الجزار على من شتمه وعيره بمزاولة مهنة الجزارة، ولكن أبا الحسين الجزار يرد على شاتميّه بإقراره مهنته ، بيد انه يفخر بأدوات جزارته مثلما افتخر المنتبي بأدبه وقوته ورباطة جأشه ، وكأنه يعارض قصيدة المنتبي التي يشير فيها إلى أن البيداء والقرطاس والقلم يعرفونه، فأما صاحبنا فاللحم والعظم والسكين والساطور وسواه هي الأشياء التي تعرفه ، حيث يعقد هذه المقارنة الطريفة ، في قوله : -

صدقتم بقريضي في الذي شتموا

مولاي إن رام شتمي معشرٌ فلقد

بالفخر فهل غير هذا القول عندهم

أقررت أني جزارٌ كما نكروا

بالفخر قبلي فأني لست أتهم

وإن يكن احمد الكندي متهما

فالحمُ والعظم والسكين تعرفني

والخلعُ والقطعُ والساطور والوضمُ (17)

ومثلما مدح الشعراء مهتم ووقفوا مدافعين عنها ، يردون كلَّ لائمٍ وشاتمٍ ومستهزيٍ فأنهم شكوا مما أصابهم من ضنك العيش بسبب مزاولتهم تلك الحرف ، فالمستوى المعيشي في العصر الوسيط كان متواضعاً إذا أردنا أن ننصفه، أما إذا أوغلنا في بيوت الشعراء وحاصر لنا أن نصف المستوى المادي الذي عاشوه فسنقف عند قرٍ وعوزٍ وسوء حال، وعلى هذا الأساس انبرى الشعراء أصحاب المهن إلى ذكر الشكوى من الزمان تارةً أخرى، فهذا شهاب الدين الزعفراني (18) قد أصيب بهذه العاصمة، فيقول:-

لقد كنت دهرًا في الكتابة مفرداً

أصور منها احرفياً تشبه الذرّاً

وقد عاد حالي اليوم اضعف ماترى

وهذا الذي يشر الله لليسرى (19)

ونجد السراج الوراق يتبنى نظرية تشاؤمية في حكمه على أهل زمانه، فهو يأس من جود أهل زمانه، ويعتقد أن النجل وعدم البذل سمة سائدة عند أهل زمانه ، لذلك فإنه لا يرضى حتى بالحديث عند السماح، وفي ذلك يقول :

أما السماح فقد مضى وقد انقضى

فتسل عنه ولا تسل عن خيره

وأسكت إذا خاض الورى في ذكره

حتى يخوضوا في حديثٍ غيره (20)

أم ابن دانيال فإنه يصور حاله بعد ان قتر عليه رزقه زبات فقيراً لا تملك شيئاً ، حتى انه باع كل ما من شأنه يباع ، ولم يبق عنده إلا حصير بالٍ أكل عليه الدهر وشرب، كما أن الشاعر أهل زمانه وكأنهم هم السبب في ما وصل إليه من سؤ حال ، فيقول في مطلع قصيدته : -

لم يبق عندي ما يباع ويشترى

الآ حصيرٌ قد تساوى بالثرى (21)

ومنها : -

افاً لعمرٍ صار في ريعانه

مثلي يؤدُّ بأن يموت ويقبراً

ولربّ قائلةٍ أما من رحلةٍ

تمسي وقد أعسرت منها موسراً

سر فالهلال كما له في سيره

والماءُ أطيب ما يكون إذا جرى

كم مدبرٍ لما تحرك عدّه

بعد السكون ذوو العقول مدبراً

فأجبتها سيرى ومكثي واحدٌ

النحسُ نحسُ منجداً ومغوراً

إن المدائن وهي أوسع بقعة

ضاققت عليّ فكيف ارجل للقرى

تالله قد أقوى السماح وأصبحت

منه عراض البر برّاً مقفراً

ولقد سألت عن الكرام فلم أجد

في الناس عن تلك الكرام مخبراً (22)

أما الشاعر أبو الحسين الجزار فإنه وقف موقفاً مغايراً تماماً للذي كان عليه عندما كان يقف مدافعاً عن صرفته ، وقد مر بنا دفاعه المستميت عن مزاولته لمهنته الجزارة لكنه عندما يشح عليه الرزق يشكو من حرفته، ويتألم لما آلت إليه أوضاعه فيصرّح بأن ما يلاقيه من شغف العيش هو سبب امتهانته الجزارة ، كذلك يصور حاله السيء بسبب هذه المهنة ، فيقول شاكياً :-

أصبحت ث منها معذب القلب	حسبي حرافاً بحرفتي حسبي
طول اكتسابي ذنباً بلا كسب (23)	موسخ الثوب والصحيفة من
انالُ منه العشا فما ذنبي	اعمل في اللحم للعشاء ولا
كأنني في جزرتي كلب (24)	خليّ فؤادي ولي فمٌ وسبخ

وهكذا نجد تاجزار كثير الشكوى مثلما كان كثير الانتصار لمهنته ، ويبدو ان الشاعر كان يعاني بين أمرين، الأول يتعلق بكرامته حينما يعبر بمهنته، فليس منه إلا ان يدافع عنها، ويظهرها بالمظهر الحسن، والأمر الآخر هو الحقيقة التي كان يعيشها وهي سؤ الحال، وشحة الرزق، وهكذا ما كان يدفعه إلى أن يصور تلك الحالة البائسة، فهو يتعذب في دكانه التي لم يبق فيها غير (الزفر من غير لحم) وكأنني به يناقض نفسه فبعدما الغناه يقلد المتنبي في فخره، نجده ألان يشكو مهنته ودكانه ، فيقول : -

وكم يوم ببيع اللحم عندي	يُعد من البوار بألف شهرٍ
ولما إن غد إلا بيع فيه	مع الميزان أشبه يوم حشرٍ
ودكاني جهنم إذ زبوني	زبانيةً بهم يعذب سري
وفيها زفرة من غير لحمٍ	وقد وُضعت سلاسلها بنحري
وقد طال العذاب عليّ فيها	لما قدمتُ من بخسٍ ووزرٍ
فإن لام العذول أقول دعني	أنا في ضيعة في وسط عمري
وعميّ قد غدا همي وأمسي	يحط ببخله قَدري وقَدري (25)

هكذا وجدنا الشعراء ، وبهذه الطرائق عرفناهم ، يصفون منهم تارةً، وينتصرون لها تارةً أخرى ويشكون منها ثالثةً وهذا الأمر ينعكس على الشعر تبعاً للظروف الاجتماعية التي كان الشعراء يمرون بها، ففي حالة الرخاء وجدناهم أقوياء ويقفون بوجه كل لائم، وفي حالة الشدة وشحة الرزق وجدناهم ضعفاء يشكون الزمان، بل ويشكون من مهنتهم التي دافعوا عنها، وربما كانت هذه الحال هي التي أشار إليها المقرئ حيث افرد قسماً لأرباب الحرف في معرض تقسيمه للمجتمع العربي في هذه المرحلة (26)

المبحث الثاني

وصف الحياة الاجتماعية

لقد وصف الشعراء أصحاب المهن مجمل حياتهم، فوقفوا عند منازلهم يصورون حالها وما حوته، ووصفوا ملابسهم ومأكلهم ومشربهم كذلك وصفوا مراكبهم ، ويعد هذا التصوير مرآة حقيقية وأطلاله واقعيه لتلك الحياة الاجتماعية التي كان يعيشها الفرد العربي في مرحلة العصر الوسيط، ذلك إن الشعراء أصحاب المهن يمثلون الطبقة الأغلب في المجتمع العربي، بل نستطيع القول أنهم يمثلون العينة المناسبة لدراسة المجتمع العربي وقتذاك، وعليه سنقف عند شعرهم الذي مثل واقعهم دون تصنع أو تكلف .

1. وصف المنازل: عمد الشعراء أصحاب المهن إلى وصف منازلهم وصفاً دقيقاً جداً، وأغلب هذا الوصف كان يتمثل الشكوى من تلك الدور القديمة والفارغة في غالب الأحيان، حيث حاول الشعراء رسم لوحاتٍ تشير السخرية

والضحك لي تلك المنازل الخربة ، فهذا أبو الحسين الجزار يصف داره التي نزل فيها وكأنه نازل إلى الطبقة السابعة من الأرض، وهي ايلةٌ للسقوط في أي لحظةٍ من اللحظات حتى أن حيطانها مائلة وهي شبيهة بالشخص الراكع وهذا ما يخيف الشاعر من أنها سوف تسجد ، إذ يقول : -

وإذ خرابٌ بها قد نزلت	ولكن نزلتُ إلى السابعة
طريقٌ من الطرق مسلوكة	محجتها للورى شاسعة
فلا فرق بين أني أكون	بها أو أكون على القارعه
تساورها هفوات النسيم	فتصفي بلا إذن سامعه
وأخشى بها أن أقيم الصلا	ة فتسجد حيطانها الراكعة
إذا ما قرأت : إذا زلزلت	خشيت بأن تقرأ الواقعة (27)

لقد أجاد الشاعر في بيته الأخير، حيث صور تلك الحالة المزرية لداره بطريقة السهل الممتنع، ويبدو أن الشعراء كانوا حريصين على تصوير هذه المنازل بصور مثل الواقع الفعلي لها كما إنهم اشتروا بالاستهزاء وأضحاك الناس عن طريق رسم لوحاتهم لتلك الحياة البائسة، فالدور الخربة ليست وحدها مادةً شعريه للاستهزاء بالمستوى المعاشي المتدني، وإنما ما حوته تلك الدور من حشرات وحيوانات تصول وتجول في عرصاتها، فضلاً عن خلوها من الأشياء التي يجب ان تتوافر فيها، وهذه الصور نجدها جليه في شعر ابن دانيال الذي كان بارعاً في نقل حقيقة ما كان يدور في بيته، ففي هذه الأوصاف يقول في قصيدةٍ بلغت خمسة وعشرين بيتاً : -

أصبحتُ أفقر من يروح ويفتدي	ما في يدي من فاقتي إلا يدي
في منزلٍ لم يحوٍ غيري قاعداً	فمتى رقدتُ رقدتُ غير ممددٍ
لم يبق فيه سوى رسومٍ حصيرةٍ	ومخدةٍ كانت لأم المهتدي
تلقي على طزاحةٍ في حشوها	قمل شبيه السمس المتبددِ
والبقّ أمثال الصراصير خلقة	من مثهم في حشوها أو منجدِ
يجعلن جلدي وارماً فتخاله	من قرصهن به يذوب الجلمد (28)
وترى براغيثاً بجسمي علقت	مثل المحاجر في المساء وفي الغدِ
وكذا البعوض يطير وهو بريشه	فمتى تمكن فوق عرقٍ يفصد (29)

ويمضي الشاعر في تصوير بيته وما حواه من أصناف الحشرات والحيوانات فقد وصف (الخنافس والعقارب والفئران والعناكب وسواها) وكأنه لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا وقف عندها، غايته في هذا الأمر تصوير تلك المعيشة البائسة في مثل تلك الدار التي سكنها، وقد فعل ابن الأعمى (30) مثله ، حيث صور داره وهي مليئة بتلك الحشرات، وكأن الشاعران اتفقا على رسم هذه اللوحة المثيرة ، إذ يقول ابن الأعمى في وصف داره :

دارٌ سكنت بها أقل صفاتها	أن تكثر الحشرات في جنباتها
الخير عنها نازح متباعد	والشر دانٍ من جميع جهاتها

من بعض ما فيها البعوض عدمته	كم اعدم الأجنان طيب سناتها
وتبيت تسعدها براغيث متى	عنت لها رقصت على نغماتها
وبها ذباب كالضباب يسدّ عي	ن الشمس ما طربي سوى غناتها
وبها من الجردان ما قد قصرت	عنه العتاق الجرد في حملاتها (31)

وقد فعل الشاعر مثلما فعل الذي قبله ، فعمد إلى الأيتان بكل ما من شأنه ان يصور هذه الدار بأبشع صورة تأبأها النفس وتنفّر منها النفوس، وربما أراد الشعراء من خلال هذا التصوير انتقاد الواقع الاجتماعي الذي كانوا يعيشونه، وربما تحريضاً للناس على رفض هذا الواقع المؤلم ، وفضلاً عن وصف المنازل وما كانت تحويه فأن سوء الأوضاع أدى إلى ارتفاع استتجار الدور، وهذا ما كان يعاني منه الشاعر ابن دانيال، حيث أشار إلى شكواه من زيادة أجرة بيته، إذ يقول :

زاد الشريف علي أجرة مسكني	ظلما ومالي عن ذراه محيد
فلذاك أهل البيت تشكو جوره	إذ نالهم بأذاه وهو يزيد (32)

ولقد أجاد الشاعر حينما ورى بـ (أهل البيت ويزيد)، وقد أراد بـ (يزيد) تلك الزيادة هالتي اقراها صاحب الدار على الاجره، كذلك أشار إلى يزيد الخليفة الأموي الذي آذى أهل البيت، وقد هجاه الشاعر هجاء لاذعا حيث قال فيه:-

فو الله لولا إن يقال تحامل	لصممت تصميم اللعين ابن ملجم
وغاية ما في الأمر انا جميعنا	إذا مالتقينا نلتقي في جهنم (33)

بهذه النعوت وبهذه الصور نقل إلينا الشعراء أصحاب الحرف تصويرا حيا لمنازلهم وقد كانوا لسان حال المجتمع، والناطق الرسمي للمجتمع العربي الذي عاش الحرمان والفاقة، ومهما يكن من شي فان وصف الشعراء أصحاب المهن لمنازلهم يعد موقفا شجاعا انتقدوا من خلاله الواقع السياسي المؤلم الذي ألقى بضلاله على تردي الوضع الاجتماعي بالطريقة التي رأيناها من خلال تلك القصائد والمقطوعات 0

2- وصف الطعام: -كانت قضية الطعام شغلا"شاغلا" في هذه المرحلة، والسبب هو سعي المجتمع لإشباع حاجته لديمومة العيش، وقد اتخذ الشعراء من وصف الطعام سبيلا"آخر للولوج إلى مشاكل المجتمع العربي آنذاك، فصوروا الفقر المدقع، ووقفوا عند حاجة الناس لإشباع بطونهم الجائعة، ولم تخل تلك الصور من الاستهزاء والسخرية وإضحاك، فالسراج الوراق أشار إلى شدة الفقر وعدم الحصول على أتفه شيء يؤكل، فما كان منه إلا إن يصور نفسه وقد أكل حماره، وقد أشار إلى معرفته بتحريم أكله ، فيقول:-

ومن فرط فقري واحتياجي بعدكم	وبذل محيا بالحياء مستر
أكلت حمارا طالما قد ركبتة	كأنني لم اسمع بأخبار خبير (34)

وعلى هذا الأساس فان الشعراء لا يتورعون في ذكر الفقر والحاجة إلى الطعام، ولا يأنفون من طلبه حتى من ممدو حيهم، فابو الحسين الجزار تقع عينه على الحلوى في شهر رمضان ولا يستطيع شراءها فيصف لممدوحه

حاجته للطعام، خصوصاً في الشهر الفضيل، الذي يتقن فيه الناس بألوان الطعام والحلوى وسواها، وحال أبي الحسين الجزار بأسوأ وضع وأكثر حاجة، حتى انه يصعب عليه أن يتسحر في شهر رمضان ، وكل هذا بسبب الفقر والحاجة ، إذ يقول:-

أبهذا الأمير قد أشكل المع	نى ومازالت عارفا بالمعاني
أتراني في العيد اجهل ذا المع	نى كجهل الحلواء في رمضان
مارات عيني الكنافة إلا	عند بيعها على الدكان
ولعمري ما عاينت مقلتي قط	را"سوى دمعها من الحرمان
ولكم ليلة شبت من الجو	ع عشاء" إذ جزت بالحلواني
حسرات يسوقها الطرف للقد	ب فويل للفكر عند العيان
وإذا سحر المسحر ليلا	التقى الأمر فيه بالعصيان
كلما بات وهو يأمر بالاد	ل أتى الفر مقبلا" ينهاني (35)

ومثلما فعل أبو الحسين الجزار فقد فعل ابن دانيال الموصلية، إذ صور في أثناء مدحه للصاحب فخر الدين ابن الخليلي فقره وحاجته للخبز الذي أصبح منيته وحلمه، فيروي قصته لممدوحه ويقول:-

وسأتهي إليك امرأ عجبياً	فاستمع قصتي سألتك الله
إنني قد تأخر القمح عني	عاشق كل مخزن فيه غله (36)

إلى أن يصل الشاعر لنقل حالة أطفاله وهم يتضورون جوعاً" ويطلبون منه ان يسد رمقهم ،أما زوجته فتكثر عليه اللوم، وتهزأ به، فتعيده بكونه زوجاً" في الفراش فقط ولا يقوى على إشباع عياله، فيقول:-

ورأيت الأطفال من عدم الخب	ز تظى ولو على قرص جله
تلك تشكو وتيك تدعو وهذي	تتجنى علي وهي مدله
فتراني ملقى وعرسي تنادي	قم وعجل فليس في الصوت مهله
أنت زوج الفراش لاعتشت أم اند	ت حكيم كما يقال بوصله
ماترينا قرصا سوى قرص شمس الـ	أفق تبدو وخشكان الالهه (37)

ومثلما وصف الشعراء حاجتهم إلى الطعام فقد ذكروا الأصناف الشائعة منه في شعرهم وأكثر ذكرهم لهذه الاطعمه وردفي الحلوى وأنواعها حتى أن الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي ألف كتاباً سماه (منهل اللطائف في الكنافة والقطايف)(38) وقد ورد في شعر الجزار ذكر الكنافة فوصفها متشوقاً لها، ذاماً المخللات التي هي بعكس طعم الكنافة الذي يتميز بالحلاة ، فيقول فيها الجزار:-

سقى الله أكناف الكنافة بالقطر	وجاد عليها سكر دائم الدر
وتبا لأوقات المخلل أنها	تمر بلا نفع وتحسب من عمري

وليس الحمى إلا القطارة بالسعر

اهيم غراما كلما ذكر الحمى

سحور سحيرا وهي عاطرة النشر

واشتاق ان هبت نسيم قطائف ال

أقول لها ما القاهرية في مصر (39)

ولي زوجة ان تشتهي قاهرية

ويدعو ابن دانيال الموصلي بالسقيا للهريسة بالدهن، فهو ليس قانعا بأكل الجبن وان كان مرغما عليه ،لأنه لا يمتلك ثمن الاطعمه الفاخرة ، فيقول:

ولا اكلاً للجبن إلا على رغمي

وما كنت ممن بالحواظر قانعا

من الدهن ما ينفك هيدبه يهمي (40)

سقى الله أيام الهريسة وابلا

وقد كثر ذكر ألوان الطعام في شعر ابن سودون(41)، وغالبا ما كان يشير إلى حاجه الناس وفاقتهم وجوعهم ويعمد الشاعر إلى ذكر أصناف الطعام والحلوى فذكر مزيج الحلوى والقطرور والقلقاس وبدرية الوز والملوخية والكبة وسواها،وهو من أكثر الشعراء ذكرا للاطعمه في هذه المرحلة، فمن مقطوعاته في ألوان الاطعمه قوله : -

ونورك بالادهان في الصحن ساطع

أفي ظلمات الجوع اترك حائرا

يرى منك يا أم الوشام تمانع

وليس يا ملوخيا بليا تزكلفت

وصحنك غبنا شمل غيري جامع

مجعة الأحباب شملي مشتت

وظال به للعاملين تنازع

أثرت بقلبي عامل الشوق والجفا

بحلقي من المامونيات طواع

فيا ليت كبا كبتين ثلاثه

وتوصله بعد القطوع شبابع (42)

ليقص عن قلبي تطاول جوعه

ويذكر شوقه للحلوى والفواكه ، فيقول في موشح:

لازال قلبي بحب الحلو معمورا

والموز في اصحن القطرور مغمورا

كيما أناديها في الناس مسرورا

قلبي يحبكما ما قلت ذا زورا (43)

ياموز ياقطر زوروا منزلي زوروا

وهكذا نحب الشعراء من أصحاب الحرف يصفون تفاصيل حياة المجتمع، وان وصفهم للطعام وارتباط ذكره بالحاجة إليه ليس من قبيل الصدفة عند كل الشعراء، وإنما يمكننا أن نجعله دليلا على انتقاد الشعراء أصحاب المهن للواقع الاجتماعي الذي عاشوه، وهو الأمر الذي يعكس تحملهم المسؤولية في نقل الواقع بدون تملق للسلطة بل على العكس من ذلك، فربما كان هذا الشعر تحريضا للناس للوقوف بوجه السلطة من اجل الإصلاح.

3- وصف الملابس:- لا يختلف وصف الشعراء أصحاب المهن لمنازلهم وطعامهم عن وصفهم لباسهم بمختلف الأوصاف وكان التندر والفكاهة هو السبيل الذي سار عليه الشعراء أصحاب المهن في تصويرهم لما كانوا يرتدونه أو يحلمون بارتدائه من ملابس متنوعة، ومن القصائد التي نعدّها خير مثال على التندر والسخرية ما أنشده أبو الحسين الجزار عندما عارض قصيدة امرئ ألقيس الشهرة، فبدلاً من دعوته للوقوف بكاءاً من ذكرى الحبيب والمنزل نجد أبا الحسين الجزار يدعو للوقوف بكاءاً من ذكرى قميص وسروال ودّراعه⁽⁴⁴⁾، ويصف حاله وحاجته للملابس بطريقه مثيرة للذعاب والتندر، فيقول:

قف نيك من ذكرى قميص وسروال	ودراعه لي قد جفا غضها البالي
ولاسيما والبرد وافي بريده	وحالي على ما اعتدت في حالة حالي
ترى هل يراني الناس في (فرجية)	أجر بها تيتها على الناس إذ يالي
ويمسي عذولي غير خال من الأسي	إذا بات من أمثاله بيته خالي
ولو إنني أسعى لتفصيل جبة	كفاني ولم اطلب قليل من المال
ولكنني أسعى إلى نحو جبة	وقد يبلغ المجد المؤئل أمثالي ⁽⁴⁴⁾

إن السمة الغالبة على أوصاف الشعراء أصحاب المهن لملابسهم هي تصوير تلك الثياب بالبلى وتقادم الزمن عليها ، وهنا أراد الشعراء الإشارة إلى عدم قدرتهم على شراء ما هو جديد، حالهم في هذا الأمر حال سائر المجتمع العربي في العصر الوسيط، وقد دارت مراسلات شعرية في هذا الجانب بين الشاعر ابن النقيب والشاعر سراج الدين الوراق عندما أشارا إلى المحادثة المشهورة حين أهدى ابن حرب طيلسانا للحمدوني وقد تقادم عليه الزمن، ونظم فيه الحمدوني عشرات المقطوعات يصف ما حل به من البلى وكثرة⁽⁴⁵⁾ ريفته وقد أشار ابن النقيب إلى هذا الطيلسان بقوله:

وطيلسان ابن حرب قد سمعت به	من طول بعث وترداد وتكرار ⁽⁴⁶⁾
----------------------------	--

فكان جواب السراج الوراق له:-

وطيلسان ابن حرب في تردده	قلبي اليك من الأشواق في نار
إذا تمزق الفاك السرى له	في رفو بال وفي حوك لإشعار ⁽⁴⁷⁾

ويصف ابن دانيال الموصللي جبته الفانيه بوصف ساخر مصورا إياها بالقدم ومرور الأيام عليها حتى انه لا يستطيع خياطتها إلا بما صغر من الشوك بسبب تهريها وبلاها، فيقول:

لي جبة فنيت مما انشيتها	وما خيظها إلا بأشراس
ورث شاشي حتى ظن مبصره	إن العناكب قدسدت على راسي
ومانظرت إلى المرأة من سقم	الا وشاهدت فيها وجه نسانس ⁽⁴⁸⁾

ويعد الشاعر ابن دانيال إلى المبالغة في العوز، فجبته الرثة القديمة لا فرق بينها وبين كونه عاريا فهي ملتصقه على جلده، وعمامته هي الأخرى لصقت على شعره فلا فرق بين لبسه إياها من عدمه، وفي هذه الصور نلمس ظرافة مع مبالغه في وصف الحال، وربما أراد الشاعر تصوير أشبع ما يمكن أن يصل إليه الإنسان في ملابسه، فيقول في هذا الوصف:-

جبة قد لبستها من جلدي	أو ماذا الشتا اتاني وفوقي
ذات مشط اعبي بنان المسدي	ولراسي من العمائم شعري
وأجهدي أن قبة الفرن عندي (49)	يا رياح المريس هبي وصبي

ومن أروع ما انشد ابن دانيال الموصلي في وصفه للملابس، ارجوزة بعث بها إلى تاجرو قد رد عليه جبة لم تعجبه، فوصفها وصفا دقيقا تفوح منه رائحة الظرافه والطرافة، حيث صور هذه الجبه بأوصاف تدل على أنها خرقة باليه بل شبيهه بورقة خفيفة ما ان يلامسها العرق حتى انحلت فيه وبليت وماعت، هذا فضلا عن الأوصاف الأخرى المثيرة للضحك والسخرية، وفيها يقول:-

رددتها ذات احتراق في الخرق
 كأنها الحراق اذ صارت حرق
 لا بسها لو مسه حر الشفق
 أو لفحة من السموم لا حرق
 كأنها مصنوعة من الورق
 يكاد ان يحلها ماء العرق
 فلو رايتها علي في الغسق
 لقلت هذا طبق فيه طبق (50)

أما الشاعر أبو الحسين الجزار فيصف ملابسه الرثة وصفا دقيقا يشترك فيه مع ابن دانيال في إشاعة روح السخرية والتفكه مشيرا إلى تقادم السنين عليها، فيصور نصيفته وقد غسلها ألف مرة، ولك أن تتصور ما يحل بثوب يغسل بهذا العدد، ولم يقف الشاعر عند هذا المعنى فحسب بل راح يبالغ في وصف ثوبه المتهري، قائلا:-

سنيها غسلتها ألف غس، له	لي نصفيه تعد من العمر
منذ فصلتها نشاء بجمله	لا تسلني عن مشتراها ففيها
فباتت تشكو هواء ونزله	نشف الريح صدرها والارازيب
في العذاب الأليم من غير زله	ظلمتها الأيام حكما فأضمت
مرارا وما تقر بجمله	كل يوم يحوطها العصر والدق

فهي تغتل كلما غسلوها

ويزيل النشاء تلك الغسله (51)

ومن الغريب ان يستتطق السراج الوراق ملابسه ، لكنه أجاد في محادثته لملابسه وقد تحدث بلسانها مستخدماً الحكمة والبديهيّة ، وإنما أراد من هذا الأمر أثبات قدم ملابسه حتى انه كان يريد إن يقلبها على وجهها الآخر ، فردت عليه أنها ليست قادرة على ان تكون بوجهين ، وهذا يدخل في باب النفاق ، ففي هذا المعنى يقول:-

قلبتا فعدت اذ ذاك قائلة:

سبحان ربي بلى قلبي وابلاني

إن النفاق لشي لست اعرفه

فكيف يطلب مني اليوم وجهان (52)

مما سبق نجد أن الشعراء أصحاب المهن كانوا يصورون مجتمعهم بطريقه تتفق مع وضعه الفعلي الذي كان يحياه، وربما ركزوا على جانب الحرمان من خلال ملابسه العتيقة والمتهرية، مستخدمين الصور النادرة والمضحكة أما ما يشير وراء هذا الأسلوب فهو إدراك الشعراء أصحاب المهن لدورهم المهم في انتقاء وضع المجتمع آنذاك، ولا غرو إنهم أجادوا، فمن الواجب أنصافهم ووصفهم بالمرأة الحقيقية التي عكست الواقع الاجتماعي في العصر الوسيط .

4- وصف الحيوان: لقد عني الشعراء أصحاب المهن بحيواناتهم ووصفوها وصفا دقيقا، وكانت مواقفهم بإزاء الحيوان متباينه، فمرة يمدحون حيواناتهم ومرة يهجونها وأخرى يرثون من سيموت منها ،بل إننا نجد إن بعض الشعراء يجامل غيره عندما يموت له حيوان، وقد عمد الشعراء إلى الميل لرسم الصور الحقيقية لحيواناتهم، أو تلك التي تقع عليها أعينهم ، واغلب ما كان يقال في الحيوانات من شعر هو مقطوعات أو نتف، لكننا نجد ابن دانيال الموصللي ينظم قصيدة في ثمانية وعشرين بيتاً يتحسر فيها على حمار له قد باعه فندم، والمثيران ابن دانيال اتخذ من تحسره على حمارة ذريعة لانتقاد المجتمع ، فالذي كان يجده في حمارة لم يجده في غيره من بني البشر من وفاء وقضاء حاجه وعدم تذرر والحفاظ على الأسرار وسواها من الخصال التي لا يمكن أن تتوافر بمجملها في المجتمع ، وفي ذلك يقول الشاعر:-

يشير بأذنيه إلي مخاطباً

فأفهم فهم الخرس فحواه والطرش

واقسم إنني ما توخيت لزه

بمقرعة تنكيه بالضرب والخذش (53)

إلى أن يقول:-

وما ساءني لما نطقت ببيعه

سوى وحشتي من ذلك المنظر الهش

وقد سال من همي الغداة وعينه

من الدمع ما يعمي المتيم أو يعيشي

ولم انسه إذ حن نحوي وكلما

تجافاه مولاه تشاغل بالقش

لقد كان نخري في الرواب وعمدتي

وموئل أمالي وعوني على بطشي

أخال به الارضين يطوي بعيدها

فوا أسفي إذ صرت من بعده امشي (54)

وأما سراج الدين الوراق فإنه يرسم صورة لطيفه لمجموعة من الديوك قد هداها له الصاحب بهاء الدين بن حنا، وقد كانت هذه الديوك بمجملها مخصيه، وهذا أمر نادر وغريب، فما كان من الوراق إلا أن يبعث بدجاجة لبهاء الدين وقد شكره على هديته، فقد امتلاً مطبخه من هذه الديوك، وعادت قدوره سوداء من اثر الطبخ، إذ يقول:-

فديت الديوك بذيح عظيم	وأنقذتها من عذاب اليم
فناري لهم مثل نار الخليل	ونارك مثل لي مثل نار الكليم
مشوا كالطواويس في ملبس	بهبي البرود بهيج الرقوم
كأنني أشاهدهم كالقضاة	بسمت عليهم كسمت الحليم
ونعم الغداء لهم قد بعثت	من الفاتنات نوات الشحوم
أعدن الشباب إلى مطبخي	وقد كان شاب لحمل الهموم
وادت قدوري زنجية	فا عجب بزنجية عند رومي (55)

ابن دانيال يكثر من وصف الحيوانات، وخصوصاً تلك التي في بيته، فقد مر بنا في وصف المنازل ذكر الحيوانات في بيته ، وهاهو الآن يصف بيته وقد خلا من الحيوانات بسبب فقده للطعام، فيقول:-

لقد هجرت بيتي القطاط لفقده	وأصبح كلبى لا يرى صورة العظم
وكانون قدري مثل كانون بارد	ومل عليه العنكبوت من البرم
وقد عتقت نار الوقود معارفي	ولاحت زبا دنيا دوارس كالرسم (56)

ومنها قوله:-

وقد هجرتنا النمل بعد توابل	لنا أخرجت عنا وذلك من قسمي (57)
----------------------------	---------------------------------

وقد وصف الشعراء حيواناتهم التي كانوا يركبونها ، واغلبها الحمير وربما البغال وقليلاً ما وصفوا الخيل، لعدم امتلاكهم إياها ، ووقف الشعراء أصحاب المهن عند حميرهم الهزيل وغير النافعة ، فأبو الحسين الجزار يصف حماره بالعجز عن المشي فهو كثير التعثر، ولا ينفع معه العلف فهو هزيل وغير مجد، إذ يقول:-

هذا حماري في الحمير حمار	في كل خطوة كيوية وعثار
قنطارتين في حشاه شعيرة	وشعيرة في ظهره قنطار (58)

أما حمار ابن دانيال فلا يختلف كثيراً" عن حمار الجزار ، فلا جدوى من امتلاكه، ذلك ان ابن دانيال كان يعاني من كثرة ما يحرن هذا الحمار ، فإذا ركبه لا ينفك من تحريك رجليه، ليضرب جنبي الحمار، ولا يمشي هذا الحمار بدون تلك الحركات، الأمر الذي يجعل ابن دانيال كثير الحركة، ولا فرق في أن يكون الشاعر راكباً أو راجلاً وهذه لوحة أخرى يرسمها ابن دانيال قائلاً:-

ولقد ركبت من الحمير كمدا	مكراً بطيا للحران مصاحبا
--------------------------	--------------------------

رجلاي في جنبه منذ ركبته

لن يفتر فغدوت امشي راكبا (59)

وفي وصف آخر لبرذونه يشكو ابن دانيال من العيوب العديدة التي لاحصر لها، فمركوبه أعرج وأعمى واصم واخرس ومصاب بعرق النساء، وقد أعيا الطبيب البيطري الذي يعالجه، وهذا ما جعل الشاعر يتذمر قائلاً:-

برذون سوء مولاي يعرفه

أعرج أعمى أصم ذو خرس

رخو النساء والشوابه صدف

اخو مطا للعقور منقوس

قد كاع فيه البيطار من صلل

ونمله قد سعت على دحس (60)

هذا كان الجانب السئ الذي أبرزه الشعراء واصفين ما يركبون من حيوانات وصفوا سيئاً، وثمة جانب آخر، وهو تأثيرهم بفقد حيواناتهم تلك التي يركبونها، فعمدوا إلى رثائها، مصورين أحوالهم بعدها، ومثلما كان يفعل الشعراء في رثاء الناس بان يعددوا مزاياهم وخصالهم الحميدة، فأنهم في رثاء حيواناتهم ذكروا سماتها وما كان يميزها، ومدى الألم والحسرة التي يعانون منها اثر فراقهما، وهذا ما فعله أبو الحسين الجزار عندما رثا حماره، فذكر خصاله الحميدة وصفاته المفيدة، فهو سريع ويسير بحذر ويخلو من العيوب، حتى شبه الشاعر حماره بالجن حين يقفز بسرعة فيتوارى عن الأنظار، فضلاً عن كونه رشيق وذكي، إذ يقول الجزار راثياً حماره :-

ماكل حين تنجح الأسفار

نفق الحمار وبارت الأشعار

ماذا علي جرى لأجل فراقه

وجرت دموع العين وهي غزار

لم انس حدة نفسه وكأنه

من أن تسابقه الرياح يغار

وتخاله في القفز جنا إنما

ما كل جن مثله طيار

وتراه يحرس رجله من زلة

برشاشها يتنجس الخطار

ويلين في وقت المضيق فيلتوي

فكأنما بيديك منه سوار

لم ادريعا فيه إلا انه

مع ذا الذكاء يقال عنه حمار (61)

وبمثل هذه الصفات وسواها رثي ابن دانيال الموصلي اكديشه الذي مات، لكن هذا الاكديش كان هرماً، قد تجاوز التسعين من العمر، ولا أظن إن هذا هو العمر الحقيقي للحيوان، وإنما أراد الشاعر ان يجعل من صداقته لأكديشه طويلاً الأمد، وهي إشارة إلى الناس يريد بها الشاعر الموعظة في حفظ الذم، فان اكديشه حفظ ذمته وهو مالا يفعله الناس آنذاك، فعمد إلى الحكمة في آخر القصيدة، إذ يقول:-

يا عين جودي بدمع منك منسجم

وابكي على فقد اكديش لنا هرم

قضى له الجوع ان يقضي بلا سبب

سواه لامن أنى داء ولا الم (62)

إلى أن يقول:

فبت ابكي لأيام لنا سلفت

لحفظ عهدي وما بالعهد من قدم

إن الرفيق ليبيكي للرفيق وقد

قالوا: المعارف بين الناس كالذمم (63)

لقد وقف الشعراء أصحاب المهن في العصر الوسيط مواقف شتى بإزاء الحيوان، ومرت بنا مشاعرهم التي كانت صادقة أحياناً ومصطنعة في أحيان أخرى، بيد إننا نستطيع أن نلمس الدور المهم للشعراء من أصحاب المهن في نقل الواقع الذي عاشه المجتمع العربي في العصر الوسيط، ويبدو إن غاية الشعراء من كل ما قيل في الحيوانات هو وصف الحالة المادية التي كانوا يعيشونها، ويمكن أن نحكم من خلالها على اغلب الناس وقتذاك، وقد نجح هؤلاء الشعراء من خلال السخرية ورسم الصور الحقيقية والمتخيلة في انتقاد واقعهم، وبهذا أصدرت أحكامهم على تلك المدة من الزمن إلا وهي العصر الوسيط .

المبحث الثالث

العلاقات الاجتماعية بين الشعراء أصحاب المهن

قد نتفق كثيراً إذا ما قلنا أن الشعراء أصحاب المهن والحرف هم الوجه الحقيقي للمجتمع العربي في العصر الوسيط، وبما أن هذه الفئة عاشت في قلب المجتمع، فإنها لا بد أن تكون مكوناً مهماً من هذا النسيج الاجتماعي، وارتبط الشعراء أصحاب المهن والحرف بعلاقات عديدة، ولا فزق في أن تكون هذه العلاقات بينهم كفته من الشعراء أو بينهم وبين سائر فئات المجتمع، وغالبا ما كانت تدور بينهم المطارحات الشعرية التي من خلالها عبر الشعراء عما كان يدور في خلداهم الواحد تجاه الآخر، ولم تخل مطارحاتهم من التذمر والتندر وإشاعة روح الدعابة حتى في احناك الظروف، وأقساها، فمن تلك المطارحات والنواتر ما كان يحدث بين علمين من إعلام الشعراء أرباب المهن، إلا وهما أبو الحسن الجزار والسراج الوراق فقد روى الغزولي قائلاً: (اتفق ان أبا الحسين قام مرة إلى بيت الخلاء فناوله السراج الوراق شمعه، فقال الجزار: (ما عادتني الشغل إلا على السراج) ومن تلك المطارحات الشعرية والمراسلات الاخوية ما دار بين نصير الدين الحمامي والسراج الوراق حيث ذهب الحمامي (64) إلى دار السراج الوراق في منطقة الروضة إحدى ضواحي القاهرة، فلم يجده، لهذا اكتب إليه قائلاً :-

ابل شوقي واحي ميث أشعاري

كم ترددت للباب الكريم لكي

وأنت في روضة والقلب في نار (65)

وانثني خائبا مما أومله

فأجابه السراج الوراق رادا عليه :

أنفاسها بين إزهار وأثمار

ألان نزهتني في روضة عبقت

وكل بيت أراه بيت خمار

أسكرتني بشذاها فانثنت بها

أولى بان يقال ان القلب في نار (66)

فلا تغالط فمن السراج ومن

فمن هذه الأبيات نلمس روح التحبب والتودد والعلاقة الوطيدة بين الشعراء، حتى أنهم يشيدون ببعضهم، ويتقربون عن طريق المراسلات الشعرية، وكانت تلك المراسلات بمناسبة تقتضيها الحالة، فعندما يمرض احد الأصدقاء لا بد من مؤسسات والاطمئنان عليه، وهذا ما فعله أبو الحسين عندما مرض صاحبه السراج الوراق بالرمد، فامتتع الناس وانقطعوا عنه خشية العدوى، فأرسل إليه صديقه الجزار تقاحا وكمثري وأبياتاً من الشعر قال فيها:-

لان لمولانا علي حقوقا

اكافيك عن بعض الذي قد فعلته

ولاغرو أن يجزي الصديق صديقا

بعثت خدودا مع نهود وأعينا

قطعت على اللذات منه طريقا

وكم عاشق يشكو انقطاعك عندما

أقمت لأوقات المسرة سوقا (67)

فلا عدمتك العاشقون فظالما

ومن دلائل المودة والعلاقة الوطيدة ما حصل بين نصير الدين الحمامي والسراج الوراق فقد كتب الأول قصيدة مدح بها صاحب بهاء الدين وكان سيقراها عليه في إحدى الليالي، فطلب من السراج الوراق ان ينقدها بين يدي صاحب، فلما قرأها الحمامي قال السراج فيها :

ولمثلي في الشعر نقد بصير

شاقني للنصير شعر بديع

قلت: نعم المولى ونعم النصير (68)

ثم لما سمعت باسمك فيه

وفي قول الشاعر مستعينا بما ورد في القرآن الكريم (نعم المولى ونعم النصير) التفاتة حسنة وفي محلها فكان يقصد بالمولى صاحب وبالنصير الشاعر الحمامي فأجاد في توريته وكانت سببا لمكافأته بمئتي درهم وهذا المكسب أكثر من مكسب صاحبه الذي انشد القصيدة وحصل على اقل من هذا المبلغ. ولم تكن هذه المطارحات بين الشعراء لوحدهم، وإنما كانت موجودة في شتى المناسبات التي يحضرها الشعراء، أو تلك التي تستوجب إرسال الشكر والثناء أو الاعتذار أو الاستعطاف وسواه، بل حتى في أثناء المداولات الادبية والعلمية، وقد حصل هذا الأمر عندما تحاور الشاعر عين بصل مع قاضي القضاة ابن خلكان، حيث كان للشاعر رأي في القديم والجديد من الشعر، وكان يميل إلى الحديث، فسوغ انتصاره لهذا الرأي قائلاً : -

بنظم قريض رائق اللفظ والمعنى

وما كل وقت فيه يسمح خاطري

بترب وهذا البحر يا صاحبي مغنا (69)

وهل يقتضي الشرع الشريف تيمماً

فقال ابن خلكان: أنت عين بصر، لا عين بصل، وقد استقبل الشاعر المعمار الأديب المعروف خليل بن أبييل الصفدي عندما قدم إلى مصر بقوله : -

نعم خليل حلها بالفلاح

وأفى صلاح الدين مصراًفيا

بالمك الصالح دار الصلاخ (70)

فليهنها الإقبال إذ أصبحت

ولم ينقطع الشعراء أصحاب المهن عن مجتمعهم ولا عن ذويهم ، فقد صوروا مشاعرهم تجاه بعضهم بعضاً، فضلاً عن مشاعرهم تجاه أهلهم، فالجزار يرثي ولده رثاءً حزيناً ملؤه الشجن والأسى على الفراق، فقد كان ولده قد أصيب بإحدى عينيه بالجدري، فلم يقصر الشاعر بعلاجه لكن المنية لا مرد لها، لذا يصور الشاعر المة عندما كان الأثر في عين ولده ويقارن هذا الألم ببكائه عندما كان ابنه مريضاً وبعد ما فقدته مع الأثر الذي كان فيه، إذ يقول في هذا المعنى : -

والحزن عندي لايبقى ولا يذُر

من بعد فقدك قل لي كيف اصطبُر

قلبي عليه لهيب النار يستعر

يامن اقام بجنات النعيم وفي

كم قد تأسفتُ ولكن لم يفد أسفي

كما حذرت وما اغناني الحذرُ

بكيت إذ قيل لي في عينه أثرٌ

فكيف حالي ولا عينٌ ولا اثرٌ (71)

وقد وقف الشعراء أمام رقة أبي الحسين الجزار موقفاً طيباً، فمثلما انشد شعراً يتألم فيه ويتوجع على فراق ولده فقد رثاه السراج الوراق بشعر رقيق صور فيه منزلته الرفيعة في إنشاء الشعر، مستخدماً ملازمات الشعر والقوافي، حيث وضع صاحبه في مصاف المشهورين والبلغاء، مشيراً إلى المصير المحتوم، حيث قال في صاحبه : -

أغابتنا لهذا يا فلان

تأمل ليس كالخبر العيان

الأعزّ القوافي اليوم عمّن

بكته البكر منها والعوانُ

لها إبطاء حزنٍ بعد حزن

واكفاءً لدمعٍ لا يصان

ولو نزفت بحور الشعر دمعاً

وكان على الخليل لها ضمانُ

لما وفته لا وأبيه حقاً

ولو بسلوكها نُظِمَ الجمأنُ

فيا أسف البديع على بديع

لكل فنونه منه افتنانُ

جمال الدين أنت جميل ظن

بربك جنّ دياناً يدانُ (72)

أما وجود الشعراء أصحاب المهن في القضايا التي تخص المجتمع ، فإنه كان وجوداً حيويّاً ، ولا تكاد حادثهٌ أو أمر طارئٍ يحل بالمجتمع ، إلا وكان الشعراء أصحاب المهن أول من يبادر إليه، بالنقد تارة، وبالتقويم تارة أخرى، ووقفوا عند الظواهر الفاسدة ، والمظالم التي كانت تحل بالمجتمع من القادة والأمراء، وحاربوا شتى مظاهر القمع والاضطهاد، وكانوا لسان حال العامة، وليس غريباً ان نسمي هذه الفئة من الشعراء: المقاومة الشعبية للسلطة الظالمة، فقد كان المعمار جريئاً جداً عندما انتقد مكان الإعدام في القاهرة، وهو الموقع الكائن في (باب زويله)، وكان هذا المكان رمزاً للظلم والتعسف، ومنه تنفذ أحكام الإعدام والصلب وسفك الدماء، ففيه قال المعمار : -

حاذر زويلة إن مررت ببابها

وطعامها كن آيساً من خيره

فموسط القتلى يقول به انظروا

من لم يمت بالسيف مات بغيره (73)

وعندما قتل احد الوزراء الذين عرفوا بالبطش وهو الشجاعى، شيعه السراج الوراق بطريقةٍ ساخرة ، وكأنه نطق بلسان الجميع، وكان الوراق شجاعاً جداً في هذا الموقف، حيث صدر عن نفسٍ مؤمنةٍ بأن الشعر مسؤوليته، لذلك قال : -

أباد الشجاعى ربُّ العباد

وعقباه في الحشر أضعاف ذلكُ

عصى نفسه فالعصى نعشه

وشيع للدفن في نار مالك

ولم يدع السيف في رأسه

من الكبر إلا نصيب اللوائكُ

وقد وقف الشعراء منتقدين الأوامر السلطانية التي كانوا يعتقدون أنها جائزة ، فالجزار مثلاً انتقد الأوامر التي أصدرها الظاهر بيبرس بحق عقوبة السكر، وقد سخر من المبالغة في الحدود تحاوزاً لما أمرته الشريعة على شارب الخمر، إذ يقول :

قد عطلّ الكوب من حبابه وأخلى الثغر من رضابه

وأصبح الشيخ وهو يبكي على الذي فات من شبابه (74)

كذلك لم يتوانى ابن الرعاد الخياط⁽⁷⁸⁾ في انتقاده القاضي المرتشي ، حيث وصفه بالطغيان ودعا ربّه بأن ينقل هذا القاضي إلى مكانٍ آخر كحلب مثلاً، وهذا ماتم فعلاً فقد استجاب الله دعاءه، حتى اعتقد الناس بكرامته ، ففي هذا قال : -

غنيتم فأطغاكم غناكم فأغننتنا قناعتنا عنكم ومن قنع استغنى

إلا مالكم سدم فساءت ظنونكم ومن عادة السادات ان يحسنوا الظنا

عسى سفرة شرقية حلبيه تروح بكم منا وتغدو بكم عنا (75)

ويبدو ابن دانيال الموصللي أكثر صراحة من غيره من الشعراء ، فقد وقف مباشرةً أمام الوالي الذي تولى ضواحي القاهرة، ليبين ان ولايته غير مجدية ، فقال يخاطبه في مطلع مقطوعته : -

إن البلاد التي أصبحت واليها أضحت ولا جنة المأوى ضواحيها (76)

فبعد أن وصلت هذه المقطوعة إلى الوالي، هدد ابن دانيال بالقتل، ولكن شاعرنا ثابتٌ على رأيه، وزاد في سخريته من الوالي، ولم يتهم لو عيده، فقال راداً عليه :

أتوعدني الهوان فليت شعري أهذا القول جائزة لشعري

وهذا كان منك جزاء مدحي وكذ قريحتي وعناء فكري

فماذا للهجاء تركت مما يهان به اخو نظمٍ ونثرٍ

فإن يلُ ذا الوعيد بأخذ روعي كما أوعدنتي يا طول عمري (77)

إن هذا اللسان السليط الذي كان سيفاً حاداً على الطغاة له وجهٌ آخر في المجتمع، حيث عاش الشعراء أصحاب المهن في ظل وحدة اجتماعية مترابطة، وقد رأينا كيف مثلوا عامة الناس، بحيث أصبحوا لسان حالهم والناطق الرسمي عنهم، وخير ما يصور هذه الفئه من الشعراء ما قاله السراج الوراق مشيراً إلى ضرورة كونه حسن اللسان طيب العشرة لا يهجو احداً، إذ نجد هذا المعنى في قوله :

أثنى عليّ الأنام أنني لم اهج خلقاً ولا هجاني

فقلت: لا خير في سراج إذا لم يكن دافئ اللسان (78)

هكذا كان الشعراء أصحاب المهن والحرف، جزءاً من مجتمعهم، ومكوناً مهماً من مكونات الناس الذين عاشوا في العصر الوسيط، ولم يكونوا معزولين أو عزلوا أنفسهم ، وإنما شهدوا بشعرهم معترك حياة المجتمع، فأصبح شعرهم مرآة عكست الواقع الاجتماعي العربي في هذه المدة المهمة جداً من تأريخ امتنا المجيد .

الهوامش :

- 1- صور من الشعر الاجتماعي في العصر العباسي : د. ضيف الله سعد الحارثي : 5 (مطابع جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1417 هـ).
- 2- الاتجاهات الشعرية في بلاد الشام في العصر العثماني: د. محمد التوتنجي : 119 (مطبعة اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ط1، 1993) .
- 3- هو أبو الحسين جمال الدين يحيى بن عبد العظيم ، ولد سنة 601هـ ، وتوفي سنة 679 هـ ، قال عنه صاحب المغرب: (كان أبوه وأقاربه جزارين بالفسطاط دكاكينهم بها إلى ألان ، قد عاينتها ، وأبصرته معهم بها) ، ترجمة ، المغرب : 296/1
- 4- صبح الاعشى في صناعة الانشا ، الفلقتندي 1/ 381 ، دار الكتب القاهرة 1340 هـ 1922م، وفي الديوان: 70، بدون ذكر البيتين الثالث والرابع .
- 5- ديوان الجزائر : 72 ، وفي المغرب 1/ 332 .
- 6- الأدب العربي في العصر المملوكي : د. محمد زغول سلام : 2/ 137 .
- 7- ديوان الجزائر : 30 .
- 8- هو نصير الدين احمد بن علي المناوي ، كان ادبياً كئيس الأخلاق يحترف بأكتراء الحمامات توفي سنة (712هـ) ترجمته : فوات الوفاة 4/ 205 .
- 9- بدائع الزهور ، ابن إياس 1/ 443 .
- 10- الكشكول ، البهائي العاملي: 111 .
- 11- هو سراج الدين بن عمر بن محمد بن حسن الوراق ، شاعر مشهور وله ديوان ضخيم وهو صاحب خط حسن كان يكتب الدرج ، توفي سنة (695 هـ) ترجمته شذرات الذهب : 5/ 431 ، فوات الوفيات 3/ 140، تأريخ الإسلام حوادث وفيات 690. 700 هـ / 254.
- 12- الوافي بالوفيات : الصفدي : 85/16 .
- 13- هو الحكيم شمس الدين محمد بن عبد الكريم بن دانيال الخزاعي الموصلية المولود سنة 646هـ والمتوفي سنة 660 هـ، ترجمة، النجوم الزاهرة: 9: 215 ، الدرر الكامنه 5/4.
- 14- المختار من شعر ابن دانيال ، تحقيق محمد نايف الدليمي : 92 . 93 .
- 15- هو الحسن بن علي ، المتوفي سنة (732 هـ) ، وكان كاتباً وشاعراً ، ترجمته : فوات الوفيات : 1/ 348 .
- 16- . الوافي بالوفيات : 12/178 .
- 17- ديوان الجزائر : 72 ، وفي الغيث المسجم : 1/ 102 .
- 18- انظر ترجميه في بدائع الزهور : 2/ 112 .
- 19- م . ن : 2/ 12 .
- 20- الغيث المسجم : 2/ 352 .
- 21- المختار من شعر ابن دانيال : 151 .
- 22- م . ن : 52 . 153 .
- 23- في المغرب قوله : بلا سبب : 316 .
- 24- ديوان الجزائر : 30 .
- 25- م . ن : 46 .
- 26- انظر : إغاثة الأمة: 72 .
- 27- خزانة الأدب: 215، وقد وردت في الديوان دون البيت الخامس مع أخطاء املائية ولغويه: 55 .
- 28- البيت فيه إقواء .
- 29- . المختار من شعر ابن دانيال : 154 . 155 .
- 30- المستظرف : 2/ 4 .
- 31- المختار من شعراء ابن دانيال: 241 ، وقد ورد في عجز البيت الثاني قوله: (إننا لهم بأذاه . . .) وهو خطأ المحقق .
- 32- م . ن : 241 .
- 33- معاهد التنصيص : 4/ 102 .
- 34- المغرب : 324 ، والقصيدية ليست مثبتة في الديوان .
- 35- المختار من شعر ابن دانيال : 77 .

- 36- م . ن : 78 ، والخشكان هو الخبز الجاف ، وتطلق علة نوع من المخبوزات يصنع من الدقيق والسكر واللوز أو الفستق ، انظر : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي - احمد محمد دهام : 69 .
- 37- جمع السيوطي في هذا الكتاب ما قاله الشعراء في حلوى الكنافة والقطايف التي أحبها الناس وقتذاك ، وقد ذكر وصفهم لها وألغازهم بها وما ورد فيها من نوادر .
- 38- ديوان الجزائر : 47 ، وفي منهل اللطايف قوله : ((وجاد عليها سكرًا دائم الذر))
- 39- المختار من شعر ابن دانيال : 250 .
- 40- هو نور الدين أبو الحسن علي بن سودون العلاني البشباغوي المولود سنة 810 هـ والمتوفي 868 ، ترجمته : شذرات الذهب : 307/7 ، الضوء اللامع : 229/5 .
- 41- الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي . احمد صادق الجمال: 214، وقد أخذها من مخطوطة (قرة الناظر ونزهة خاطر) لابن سودون ، وهي بدار الكتب المصرية تحت رقم (329) أدب .
- 42- م . ن : 115 .
- 43- الدراعة : هي جبه مشقوقة المقدم ولا تكون الا من الصفوف انظر : معجم الألفاظ التاريخية في العصر .
- 44- المملوكي : 74 .
- 45- ديوان الجزائر : 69 .
- 46- انظر ، فوات الوفيات : 1 / 173 ، 1 / 175 .
- 47- م . ن : 1 / 177 .
- 48- م . ن : 1 / 177 .
- 49- المختار من شعر ابن دانيال : 72 .
- 50- م . ن : 238 .
- 51- م . ن : 179 .
- 52- ديوان الجزائر : 65 .
- 53- الغيث المسجم : 145/1 .
- 54- المختار من شعر ابن دانيال : 249 .
- 55- م . ن : 254 .
- 56- الوافي بالوفيات : 226/1 .
- 57- المختار من شعر ابن دانيال : 249 .
- 58- م . ن : 250 .
- 59- مطالع البذور - الغزولي : 2 / 184 ، ولم أجده في الديوان .
- 60- المختار من شعر ابن دانيال : 256، وفي مطالع البذور : 191/2، قوله : ((لم يفترأ)) وأجد انه الصواب .
- 61- م . ن : 81 . 82 .
- 62- مطالع البذور : 191/2 ، ووردت في الديوان متفرقة في ست أبيات : 40 .
- 63- المختار من شعر ابن دانيال : 216 .
- 64- م . ن : 216 . 217 .
- 65- مطالع البذور : 60/1 .

المصادر

- 1- الاتجاهات الشعرية في بلاد الشام في العهد العثماني .د. محمد التوينجي منشورا اتحاد الكتاب العرب: 1993.
- 2- الأدب العاصي في مصر في العصر المملوكي ، محمد احمد دهان، دار الفكر المعاصر .بيروت، دار الفكر .دمشق، ط1410، 1990 .
- 3- الأدب العربي في العصر المملوكي، د. محمد وغلول سلام، مطبعة منشأة المعارف، الإسكندرية / 2001 .
- 4- إغاثة الأمة بكشف الغمه .المقريزي ، احمد بن علي ، دار لبن الوليد دمشق ، 1956م .
- 5- بدائع الزهور ووقائع الدهور ، ابن إياس ، محمد بن احمد ، تحقيق محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط2: 1961م .
- 6- تأريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، الذهبي ، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان ، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، بيروت 2003م .
- 7- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ابن حجر العقلائي ، تحقيق سيد جاد الحق ، دار الكتب المصرية ، القاهرة .

- 8- ديوان الجزائر ، تم د. محمد زغلول سلام . دار المعارف القاهرة 1971 م .
- 9- السلوك في تأريخ الملوك للمقريزي ، تحقيق سعيد عاشور ، دار الكتاب . القاهرة 1972م
- 10- شذرات الذهب في اخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي ، دار الكتاب العربي . بيروت
- 11- صبح الأعشى في صناعة الانشا ، الفلقشندي ، دار الكتب القاهرة 1340 هـ . 1971م.
- 12- صور في الشعر الاجتماعي في العصر العباسي .د. طيف الله سعد الحارثي . مطابع جامعة أم القرى . 1417 هـ.
- 13- الغيث المسجم في شرح لامية العجم ، الصفدي ، خليل ابن أيبك ، دار الكتب العلمية ، ط1 بيروت ، 1395 هـ . 1975 م .
- 14- فوات الوفيات ، الكتبي ، محمد بن شاكر ، تحقيق أحسان عباس ، دار صادر .
- 15- الكشكول ، العاملي ، محمد بن حسين ، المطبعة الشرقية القاهرة 1302 هـ .
- 16- المختار من شعر ابن دانيال . تحقيق محمد نايف الدليمي ، منشورات المركز الثقافي الاجتماعي ، جامعة الموصل ، 1399 هـ . 1979 م .
- 17- مطالع البدر في منازل السرور . لغزولي ، مطبعة إدارة الوطن . القاهرة، ط1 ، 1300 هـ .
- 18- المستضرف من كل فن مستضرف ، الابشيهي ، محمد بن احمد ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة، 1379 هـ .
- 19- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، العباسي تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، 1367 هـ . 1947 م .
- 20- معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، احمد صادق الجمال ، الدار القومية للطباعة والنشر . القاهرة . 1385 هـ . 1966 م .
- 21- المغرب في صلى المغرب ، ابن سعيد ، موسى بن محمد ، تحقيق د. شوقي ضيف وآخرين ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، القاهرة . 1953 .
- 22- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، لابن تغري بردي ، تحقيق احمد نجاتي مطبعة دار الكتب، القاهرة ط1 ، 1956 .
- 23- النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة . ابن تغري بردي الاتاكي، دار الكتب المصرية - القاهرة .
- 24- الوافي بالوفيات، الصفدي، خليل بن أيبك، تحقيق مجموعة، دار فرانز شتاينير بفسبادن ، المعهد الألماني للدراسات الشرقية، بيروت، 1980 م .